لكتاكيت أجنحة

قصة : عبد العال الحمامصي

دخلت غرفة النوم .. وخلعت ملابس البيت .. ثم ارتدت فستان المناسبات الوحيد لديها .. ووقفت امام المرآة تمشط شعرها استعدادا لاستقبال خطيب أختها وأسرته .. والصحة في الصالة تتفقد اليها صاحبة .. تموج بالفرحة .. نساء وعذراى وأطفال .. وزغاريد ترعق بين كل لحظة والأخرى . كلما قدمت مدعوة جديدة .. والفتاة النحيفة ما زالت ترقص .. ويتأود جسدها كالثعبان على نغمات الطبلة في يد الحارة العجوز .. وهي تغني بصوت مشروخ التمرات .. لاحتها في الصالة .

تمنت سعاد لو أن تظهر بفستان جديد في هذه المناسبة .. الفستان القديم لم يفقد رهوته .. ولكنه ضاق عند خصرها .. والجنيهات التي وفرتها لشراء فستان جديد .. اعطتها لمرشاد ليبتاع بها مراجع جديدة .. ظهرت في الهندسة الكيمائية .

ومن خلال الدوامة في الصالة تناهت اليها زغرودة قوية .. اهتزت لها جدران البيت .. ثم جاوبتها زغاريد المدعوات .. هادرة ..

عرفت سعاد صاحبة الزغرودة .. وابتسمت .. خالتها حميدة .. دائما تدخل بمعاصفتها في الاحزان .. وفي الافراح .. !

وتأكد اعتقادها عندما هدأت روعة الزغاريد التي أثارتها .. وتدافعت عبارات التهنئة من فمها لتهاد منفعلة باهتياج الفرحة ..

« مبروك يا تهاد .. الف بركة يا ست الكل .. ربنا يتمم بخير يا ضنايا .. وعقبال كل البكارى .. » .

واندفعت تسحب الحطيبة من بين صوبحاتها .. وتحتوبها الى صدرها وهى تعصرها بقبلات منهمرة .. ثم تطلق من حديد زغرودتها الصاخبة .. فترد عليها أفواه الحارات بالزغاريد متجاوبة ..

وقبل أن تجلس بجوار جاره تحت طفلها لتفسح لها مكانا بجانبها .. انطلقت نظراتها تتجول فى ارجاء الشقة باحثة عن سعاد ..

* « يا أختى .. أمال فين سعاد يا بنات .. فين راجل البيت ؟؟ » .

وابتسمت سعاد داخل غرفتها .. ساخرة وقد شعرت بالكلمة تخدش قلبها .. وتتلاقى مع احاسيس غريبة ظلت منذ الصباح تقاومها .. ربما للمرة الأولى فى حياتها تشعر بالمرارة لوقع الكلمة .. رجل البيت .. همست لنفسها بالمرارة .. وانسابت الكآبة فى روحها .. انسابت تيارا هادئا من الأسى حرف كيانها ! ..

رجل البيت .. عادت ترد الكلمة .. وهى تجفف قطرات من الدموع طفرت برغمها . ثم انبثقت من أعماقها خواطر تلومها .. وتستنكر هذا الاحساس منها بالأسى والاكتئاب فى ليلة خطوبة أختها ..

وعاد نداء خالتها حميدة من الصالة يستعجلها .. وهى ما زالت أمام المرآة تعيد تصفيف شعرها .. لم ترق لها التسريحة الأولى .. تبدو فيها كفتيات الملاهى !

وخطت المشط وخرجت الى الصالة .. وفوق ثغرها ابتسامة عريضة .. وانفجرت الزغاريد فى وجهها . وهى ترحب بالمدعوات .. وتقبل مجموعة من زميلات نهاد فى معهد المعلمات حين اثناء وجودها فى الغرفة .. وتتمنى لهن العاقبة .. تشرق الأحلام فى عيونهن والجارات من حولها يتبادلن التمنيات لبناتهن والشبان ..

كل واحدة تتمنى العاقبة للأخرى .. هى الوحيدة التى لم يقل لها أحد العاقبة لك .. ولا واحدة قالت لها الكلمة المعتادة .. ولا واحدة !

وعادت الكآبة توخز قلبها ! هى .. شىء فرع من أمره . عرف مصيره .. لا مستقبل له . لا عاقبة عنده .. والتفت بخالتها حميدة وهى خارجة من المطبخ .. وفتحت ذراعيها تحتضن المرأة البدينة الطيبة .. بقبلاتها . وتمنياتها ..

* « مبروك للهاد يا صبايا .. وعقبالك يا بنتى . ربنا يعوض صبرك .. ويوعدك بابن الحلال » .. ؟ ابن الحلال .. خالتها حميدة . هى الوحيدة هنا التى تذكرت انها انثى .. من حقها أن تقال لها الكلمة .. !

ابن الحلال ..

شعرت بالكلمة توجع قلبها .. تغذت داخل اعواره .. تثير لواعجه الكامنة ! ..

وتخلصت من أحضان خالتها ترد لها التمنيات ..

× « عقبال الشهادة الكبيرة لعروس يا خالة .. وحجتك انت وعمى رضوان .. » وبادت لأختها الوسطى فى المطبخ تستعجل الشربات ..

ـ « ياما نفسى يا سعاد يا بنتى ..

عينى لغاية ما اشـــوفه حبيبك فى الكوشه ! .. » .

وابتسمت سعاد ..

× « هو .. مين دا .. يا حالتى ؟ »

نفذت نظرات المراة داخل عينيها .. وهى تبتسم بدهاء . حنون !

× « يا بت .. اطلعى من دول .. مش عارفاه مين .. ابن الحلال يا روح خالتـــك .. طب والنبى .. وعلاوة محروس بســـلامته .. لوراه لحد ما اجمعه واجيبه لغاية عندك .. عريس عليه القيمـة .. يســـتاهل عقلك . وكمالك . ويعوض صبرك !! » .

لم تستطع هذه المرة أن تمنع المرارة من أن تشوب ابتـــامتهـــا وتطل من عينيها .

× « بعد ما شاب .. يا حالتى .. ما أنا قلت لك من زمان .. خـــلاص يا خاله .. بقيت راجل العيـــلة .. والحكاية دى مفتشى أفكر فيها .. مش فاكره والا ايه ؟ .. » .

رجل العائله ! ..

خالتها حميدة .. هى التى اطلقت عليها تلك التسميه .. ليلة رفاف وداد وهناتها لزواج اختها . وتمنت لها ابن الحلال .. وأجابتها سعاد بأنها تزوجت خلاص .. تزوجت اختهـــا وأصبحت رجل العائلة .. ومن وقتها وخالتهـــا حميدة لا تناديها الا وهى تداعبها بتلك العبارة .. رجل العائلة .. بدون ان تعرف أنها تدمى بها الجرح الكامن فى أعماق أنوثتها .. الجـــرح المتقيح فى الداخل لا يريد ان يلتئم ابدا .. وتحرص على أن تدارى عن العيون نزيفه ! ..

تركت خالتها عـــندما جاءت وداد بالشربات .. واخذت تساعد أختها فى توزيع الأكـــواب على المدعـــوات . والأطفال .. ونظرت الى ساعة يدها .. الثامنة والنصف .. الخطيب موعدة التاسعة ..

وحانت منها التفـــاتة للعروس فى ثوبها الأنيق .. فاتنة .. وحلـــوة . والســـعادة ترعرد فى عينيها .. ومن حولها البنات .. زهرات شـــذية .. يحطن بها . ويداعبنها واحدة تقرص خـــدها . وأخـــرى تهمس فى أذنها . والأحلام فى كل عين . والابتسامة فوق كل ثغر .. كل واحدة فى قلبها الاحساس بأنها على موعد مع الغد !!

كانت خـــواطرها تتابع « ريطة » الفتيات .. عندما اصطدمت بها احدى المدعوات عفوا .. وامتدت يد الرضيع فوق صدر الـــيدة « بنكش » شعرها . واقتربت من المرآة المقابلة لتعيـــد توصيبه .. والتقت نظراتها بالشعيرات الفضية بين خصلاته .. وعـــامت أساريرها ..

لم تكن تلك الشعيرات مفاجاة لها .. راتهن من قبل .. وأحصتهن بالواحدة . فما الذى جعلها ترتجف هـــكذا .. فى ليلة أختها .. « مادا جرى لك يا سعاد .. اية أحاسيس غريبة ومجنونة تراودك اليوم يافتاة .. اتقى لنفسك .. لم تعودى مراهقة !! »

نظمت شعرها واســـتدارت ترحب بحارة وافدة من بناتها .. والتقت عينها بعين أختها .. كانت العروس تتابعها .. وقطبت هى للاكتئاب الذى يشـــوب نظرة نهاد .. فى ليلة حظوتها .. !

وابتســـمت لها .. « معـــذرة

يا صغيرتى .. لا شيء . لا تكتبى هكذا ياعصفورة فى ليلة احلامك .. كونى سعيدة ياحلوة .. فى منتهى السعادة أنا .. سيكون لك بيت يحتويك .. ورجل يحميك .. والحياة أمامك .. فى منتهى السعادة أنا ... فلهذا اليوم كنت أعيش .. سعيدة .. لأنى ادخرت عمرى حتى لا تدوس أقدام الزمن حيواتكم .. ونجحت .. وداد .. تزوجت .. ولها بيتها . وأنت فى الطريق ورشاد بقى له عام .. ويتخرج من كلية الهندسة .. ويواجه الحياة رجلا .. يركع المستقبل تحت قدميه ..

وأنا .. أنا سعيدة » . وكادت الدموع تنبثق من عينها . ولكنها قاومتها .

وأفاقت من خواطرها .. ومفاجأة أختها على الزغاريد تنطلق عاصفة .. واستدارت فوجدت الخطيب خلفها وأسرتة .. الام .. وبنتها الطالبة .. وماجد الصغير .. آخر العنقود .. ونهضت صابحة صديقة نهاد المخلصة لتعطى مكانها للعريس بجوار عروسه .. وانطلقت الزغاريد من جديد .. ثم اشتد حماسها ودويها عندما دخل رشاد . « الباشمهندس » .. رددتها أفواه الأمهات .. ثم انهالت عليه التمنيات .. بالشهادة .. والعروس .. وترقرقت الأحلام نشوانة فى عيون البنات . وهن يخالسنه نظرات معجبة بوسامته .. فطنت اليها سعاد !!

« كل واحدة لها أحلامها الا انت يا سعاد .. « الباشمهندس » .. كل عذراء هنا تتمناه .. اعطيته دم قلبك لتقدميه فى النهاية لواحدة أخرى .. تأخذه منك » . انها تعرف ذلك مقدما .. تعرف أنها مجرد صانعة أفراح .. وليست لها أفراح تخصها ..

وقدم العريس « الشبكة » والبس الخطيبة « دبلتها » .. وانطلقت الزغاريد !

ونظرت الى الدبلة فى أصبع أختها .. ذات يوم .. كانت فى اصبعها هى الأخرى دبلة .. كان لها خطيب .. وارتفعت نظرتها الى عين نهاد .. أختها سعيدة بدبلتها فى أفراح عينيها الاحساس بأنها دخلت الدنيا ! .. « كونى سعيدة يا عصفورة « دبلتك كأنما فى اصبعى أنا » .. !!

ومن خلال الصحة والوجام والزغاريد . تدافعت الذكريات الى مخيلتها ..

كانت صغيرة .. لها أحلام مراهقة تحلق فى أجواء فسيحة .. طالبة فى مدرسة السنية .. فى كل مكان تحاصرها نظرات الاعجاب .. وتنهدات الشباب .. فى الاتوبيس .. فى الشوارع . فى الحارة .. فى كل مكان تلاحقها النظرات المفتونة بجمالها ورشاقتها .. ورغم ان عبارات الغزل كانت تدغدغ بالفرحة روحها .. ظلت تدخر عواطفها .. وتعرقها فى المذاكرة .. حتى تتخرج من الجامعة . وتلتقى برجل أحلامها .. وفى يدها شهادة تحفظ عليها كرامتها . وتساعد بها زوجها فى معركة الحياة .. ليكون بيتهما سعيدا .. وتحتبه الحياة المكدودة التى يعيشها والدها فى كفاحه المرير من اجل ان يقيم أود عائلته . ويدفع لها مصاريف المدرسة .. ! اغلقت

قلبها دون أي نداء .. لم تعط شابا حتى ابتسامة ارتياح لعباراته ..

وفى شارعها كانت طلبة الثانوى يدعونها بالمتكبرة . والمغرورة .. والذين يطالعون الروايات منهم .. اسموها . « المعقدة » .. وكانت تبتسم ساخرة فى سرها ! ..

وابتسمت الدنيا فى وجهها .. عندما نالت شهادة التوجيهى بمجموع يتيح لها المجانية فى الجامعة .. ولكنها كانت قد اتخذت قرارها .. سوف تشتغل بشهادتها وتنتسب لكلية الآداب فى نفس الوقت .. لتوفر على والدها الطيب نفقاتها الخاصة .. ومن جهة اخرى لترد له بعض الدين !! ..

وحاول الرجل الطيب أن يقف فى وجه قرارها .. وعدها بأن يحول قطرات دمه الى نقود تفى باحتياجاتها .. ولكنها كانت قد ركبت رأسها .. فرضخ الرجل مرغما لعنادها .. وتوظفت بقسم الحسابات فى « شركة البلاستيك الأهلية » .. وخطبها أحد المهندسين الجدد .. اجتذبته اخلاقها واستقامتها كما قال لها .. وبايعت فى البداية .. ثم قبلت عندما وعد بأن ينتظرها الى ان تستكمل تعليمها العالى .. ووضع الدبلة فى اصبعها ! ..

وافاقت من خواطرها على صوت ام الخطيب .. تسحبها من يدها .. ثم تطوف معها بالمدعوين تستعرض «الشبكة» التى انتقاها ذوق العريس !..

كانت لها ايضا هى « شبكة » .. اعادتها لصاحبها .. مات والدها بالذبحة الصدرية .. مات الرجل الطيب المريض .. الذى ينوء كاهله بمطالب اسرته .. ورغم مرضه وشيخوخته .. كان يعود من عمله النهارى فى مصلحة المساحة ليشتغل قاطع تذاكر فى فترة المساء « بسينما الشرابية » . ليجلب اجرا اضافيا يغطى به نفقات البيت .. لم تره يشكو ابدا .. كان يحتمل تعاسة واقعه بلا مرارة .. وخرج الرجل الطيب من الدنيا بدون مسرات لها فيها .. ثم لحقت به زوجته بعد ذلك بشهور ! .. وجدت سعاد نفسها رجل العائلة .. كان هذا نصيبها .. وسارت بالسفينة بين الأعاصير وحدها !

واعادت الشبكة لصاحبها .. مع الدبلة .. !

تمنت وقتها بلهفة جائعة .. ان يكون الرجل شهما .. ليقول لها « كونى لى ولاخوتك فى نفس الوقت وليكن مرتبك من اجلهما .. لم تكن ستقبل تضحيته مهما حاول .. ولكنها تمنت أن يقول لها ذلك فحسب .. لتشعر أن الدنيا بخير .. وان فيها من يبدى استعداده للتضحية .. كانت سترفض عرضه قطعا .. فقط تمنت الكلمات .. لتعيش عليها .. لتواجه المصير بها .. ولكنه لم يقلها ! .. أبدى اسفه .. قال انه كان يتمناها زوجة .. ولكنه يريد سيدة بيت تتفرغ له ولأولادها .. وظروفها هى ترغمها على العمل من أجل اخوتها !!

نسى الرجل أنه اتفق معها من قبل على ان تظل فى العمل بعد الزواج

لتضيف مرتبها الى مرتبه ليمكنهما توفير حياة طيبة لأولادهما .. نسى ذلك .. انها لا تحقد عليه .. لا تلومه .. ولكنها كانت تنسى الكلمات .. !!

وماتت احلامها فى الجامعة .. انقطعت عن مواصلة الانتساب .. لم يعد لديها وقت للمذاكرة .. وتسع المحاضرات .. كانت تعود من الشغل لتنكب على احتياجات اخوتها . المطبخ . والغسيل . والمشاجرات . ومشاكل الطفولة .. أصبحت الأب . والأم . والمربية . وأخيرا .. هاهى الآن عانس فى الخامسة والثلاثين .. وحيدة .. بلا أفراح تخصها ! ..

وانفض حفل الخطوبة .. استأذن العريس وعائلته .. وانصرف بعده بقية المدعوين .. ثم حالتها حميده .. ووداد مع زوجها .. وارتدى رشاد ملابسه وذهب الى فراشه .. ونفت سعاد ثوبها الجديد وساعدت نهاد فى خلع فستان الخطوبة .. وقبلتها ثم أطفأت النور . وتمددت على السرير بجوارها .. وعادت الخواطر تحرف كيانها .. وسرعان ما وجدت نهاد بجوارها قد غرقت تماما فى نومها .. وامتدت يدها تداعب خصلات شعرها .. « نامى يا حلوة » .. وانحنت تقبل خدها .. ثم أمسكت يدها تتحسس الدبلة فى اصبعها .. ولثمتها ! .. ثم أسدلت « اللحاف » على وجه الصغيرة وانسابت مع ذكرياتها .. !

والدها المحور .. المشروح الصدر .. كم كان يعبدها .. ونزهاتها معه وهى طفلة على شاطىء النيل .. وفى حديقة الحيوان .. وحواديته لها عن سفح الهرم .. وشقاوتها وهى تجرى هناك .. وتقذف انف ابى الهول بالحصى والرمال!! أطبق على قلبها الانقباض .. مات الرجل الحنون الطيب والأسى يترع قلبه .. مات ونظرة الأسى فى عينيه .. لأنه ترك للدنيا «كتاكيتا بلا أجنحة .. » وانبرت لها من بين الذكريات المتداعية صورة أمها .. يوجهها الباش . وطرحتها البيضاء .. وتوهمتها تدنو من فراشها فى الظلام .. ومدت يدها بحركة تلقائية .. ولكنها قبضت على الفراغ .. ووجدت نفسها تهمس لها .. « قولى لأبى يا ماما سعاد قامت بالمهمة .. لكتاكيته الآن أجنحة ! .. عام واحد يا أمى ويعدو رشاد مهندسا .. ووداد يا أمى زوجه هانئة .. أم ثلاثة أطفال كالملائكة .. ونهاد فى اصبعها دبلة .. وشهادة من معهد المعلمات !! » .

وانخرطت تبكى .. كل هذا صنعته هى .. على حساب شبابها .. قاومت انوثتها .. واختلاجات الربيع فى قلبها .. كل فتاة مثلها .. كانت تحلم بقبلات حبيب .. بأحضان رجل بمباغاة طفل تنسجه من أحشائها .. الا هى مضت وحيدة .. لا هدف لها الا ان تصنع للكتاكيت أجنحة .. مضت وعلى كاهلها التبعة .. وهى تحاول ان تبدو جامدة كالصخر .. متجهمة دائما كالراهبات . حتى لا تعطى الفرصة لانسان كى يتمناها ! ..

منذ عشر سنوات تماما .. كان احد طلبة الجامعة يقطن فى مواجهة نافذتها .. دائما كان يعاكسها .. ينتظرها عند محطة الاتوبيس فى الصباح وهى ذاهبة الى عملها .. ويترقبها وهى عائدة ..

ليبثها عبارات الوله .. والغرام .. ويناشدها أن تستجيب لعاطفته .. وترحم سهادة .. كان يقول لها همسا بأنه لا يستطيع الحياة بدونها .. وأنه على استعداد لأن يقدم لها أى تضحية تطلبها تأكيدا لحبه .. ولكنها دائما تمضى بدون أن تلتفت اليه .. كأنما كلماته لاسانه غير موجودة !!

وكانت تتعذب .. كلماته المترعة عذوبة وحنانا .. وشعرا .. كم اذابت قلبها .. بدون أن تعطى قسمات وجهها أى تعبير يمشى بشوة روحها لكلماته . وفرحة قلبها برؤياه .

وذات صباح اقترب منها .. ثم اندفعت كلماته .. حانقة .. ثائرة .. يائسة :

« انت .. انسانه بلا قلب .. بلا عاطفه .. انا حرين لانني احبتك . لم اكن اعتقد أن توجد فتاة متحجرة .. ومتكبرة .. ومعقدة الى هذا المدى .. حرين .. انا . ومن اجلك ايضا .. » قال كلماته بسرعة لاهثة .. ومضى ! ..

متكبرة هى .. ومعقده ! ..

تمنت لحظتها لو كانت تستطيع ان تجرى خلفه .. لتقول له ان كلماته احمل شيء فى حياتها .. وانها الشعاع الوحيد الذى يضيء بين ظلمات واقعها .. ولكنها لا تستطيع .. لا تستطيع لا لانها متكبرة ومعقدة .. بل لانها غير البنات .. لانها رجل عائلة .. وانه غريب فى الحارة ولا يعرف ظروفها .. !

وكف بعد ذلك عن التصدى لها .. ثم عاد الى بلدته فى الأجازة الصيفية .. ولم تعد تراه بعد ذلك فى الحارة .. اختفى من حياتها .. انها الآن مستعدة أن تدفع بقية عمرها فى سبيل ان تراه مرة واحدة .. أن تراه من بعيد .. ربما يكون الآن فى مكان ما من هذا العالم فى أحضان زوجه طيبة .. تسكب انوثتها وحنانها دفئا لشبابه .. أما هى فمانس فى الخامسة والثلاثين .. وحيدة مع وسادتها .. وحيدة . والشعر الأبيض يقتحم رأسها .. وحيدة فى النهاية .. وربما بسنون تضحية العانس العجوز . وازدادت دموعها انهمارا وهى تتخيل شيخوختها .. وحيدة .. بلا شيء يدفء حياتها ويعطى الطعم لأيامها . بدون كتاكيت تصنع لها أجنحه ! ..

اعتدلت نهاد وهى نائمة على جنبها الأيسر واعطتها ظهرها .. لأول مرة تنام الصغيرة وصدرها ليس فى أحضان اختها .. اكتفت الليلة بأحضان عريسها .. فى الاحلام ..

« نامى يا حلوة .. هانئه » ووجدت نفسها تبحث عن يد أختها .. ثم تتحسس الدبلة فى اصبعها . وقد أشرقت من ظلام خواطرها رؤيا أشعت تثلج قلبها .. ثم انسابت وانتشرت تضيء كل احاسيسها .. فتركت يد اختها وأسدلت الغطاء على وجهها . وأغمضت عينيها على مطر خالتها حميدة .. تندفع الى الصالة بعاصفتها .. ثم تنطلق فى ارجاء البيت زغاريدها !!